بين السيرة والقصة

بقلم الكاتب الفرنسي : أندريه موروا

ترجمة : صديق شيبوب

تناول الكاتب الفرنسي « اندريه موروا » موضوع الموازنة بين السيرة والقصة وبيان وجوه الشبه والاختلاف بينهما في المحاضرة الاخيرة من ست محاضرات ألقاها في شهر مايو سنة ١٩٢٨ بكلية « ترينيتي كوليج » بكامبريدج ثم جمعها في كتاب عنوانه «ظواهر السيرة» .

واندريه موروا اشهر بكتابة السير والتراجم ، وله في هذا الباب العديد من المؤلفات المعروفة ، كما كتب عددا من القصص الطويلة والقصيرة .

ولا شك في ان ممارسة اندريه موروا للفنين واعتلاكه لناصيتهما يضفي على الموازنة التي عقدها اهمية خاصة . وهذه ترجمتها .

***

في المحاضرات السابقة كنا نطارد شبحا يهرب أمامنا ، وهو معرفة حقيقة الانسان ، ونتساءل هل يستطيع كاتب السيرة ادراك هذا الشبه والوصول اليه . وكان رأينا انه لن يتمكن من ذلك ، لاننا في كل مرة نعتقد اننا تمكنا من وضع يدنا على كتف الشبح الشفافة كان الشبح ينقسم الى شطرين ويفلت كل واحد منهما هاربا في شعاب متعرقة وانحاءات مضادة .

فمن ناحية أعمال الشخص وحياته الظاهرة فاننا نعرف انه سافر ، وانه التقى بهذه السيدة ، وانه ألقى ذلك الخطاب ، لكن في الناحية الاخرى فان حياته الداخلية تفلت منا كلما اعتقدنا اننا ادركناها . انها تظهر أحيانا ظهورا ماديا في شكل مذكرات يومية ، او رسائل ، ولكن هذه الوثائق لا تلبث ان تثير شبهاتنا لاننا نشعر ان وراء سطورها ، وفي الاعماق ، توجد أشياء أخرى كان يجب ان نعرفها ، هذه الاشياء الاخرى التي نشعر بها في أنفسنا مثل تيار الافكار المستمر في تدفقه ، والصور العابرة التي تحول في المخيلة ، والنوايا والحسرات ... كيف نستطيع معرفة هذا جميعه عن رجل مات ونسي عن هذه الدنيا واصبح البحث عن نوايا نفسه في صدر وأناة غير ذي جدوى .

يضاف الى ما تقدم انه عندما يساعد الحظ وتكشف الصدفة عن أعمال بطلنا ونواياه معا نجد انهما متضادان لانه في حين كنا نود ان نستوفي الحكم على العمل تظهر سلامة الطوية فنترع كل سلاح من أيدينا ، ونستنتج من هذا انه لو اطلعنا

على الاعمال فقط كان من العسير عليها تفسيرها . واننا تعلمون قصة «روسيتي» الذي أحس عند وفاة زوجته بندم شديد على سوء معاملته لها ، فاراد ان يعاقب نفسه ودفن معها في القبر كل الأشعار التي نظمها منذ زواجهما والتي كانت في نظره رمز حياته . وكان «روسيتي» يخشى ان يكون قد ضحى بشخص حي في سبيل فنه فاراد أن يعاقب نفسه بازالة ذلك العمل الفني . وتعلمون أيضا أن «روسيتي» بعد مرور شهور على ذلك لم يتمالك ان فتح المقبرة واسترد أشعاره . وهي قصة مثيرة حقا . والقاص يستطيع ان يحمل منها موضوع قصة مؤثرة وان يدلنا على الأحاسيس التي اضطربت بها نفس «روسيتي» في تلك الفترة من حياته وأدت الى تنفيذ ماعزم عليه . ولكن مادا يفعل كاتب السيرة ؟ ان أشياء كثيرة تفوته . كيف كان يفكر روسيتي وما هي مشاعره عندما قام بعمله الاول (دفن المخطوط) ومادا كانت أحاسيسه عندما بعد عزمه الاخير الرهيب (فتح القبر) . اننا لا نعرف شيئا من هذا ولن نعرفه .

يساور القلق نفس كاتب السيرة اذا شاء ان يتخيل ما اذا كانت تنصيته وثيقة مفقودة . ومن الامثلة على ذلك اننا نعرف من شهادات بعض المعاصرين ان الشاعر شيلي عندما هجر زوجته «هاريت» وهرب مع «ميري جودوين» كان يتهم زوجته بالخيانة، وهو عذر يبرر تصرفه . ولكنه لو لم توجد الوثائق التي دلت على ذلك فيما بعد لظهر عمل شيلي قاسيا لا مبرر له .

فعلى السيرة لا يعيش الأشخاص الا بقدر ما رآهم عزرهم يحيون ، وما دونوا من اعمالهم . وكانت الفلسفة المثالية القديمة تقول « المشاهدة دليل على الوجود » . فلا وجود لبعض السيرة الا بالرسوم التي وضعها له الذين عرفوه أو التي وضعها لنفسه . أما الانسان الحقيقي فلن نصل الى جميع مظاهره ، في حين ان هذا الانسان قد وجد فعلا ولكن كيف نعثر عليه . وأي صياد ماهر يستطيع أن يطارد الشبحين في وقت واحد . هل هو كاتب السيرة ؟ ان الجواب بالنفي اقرب الى الصواب ، ولعله القاص .

يستطيع القاص ان يجد موقفا يمكنه من ان يتمثل وجهتي النظر في وقت واحد ويضرب على ذلك مثلا بجندي ظل عند الهجوم محتميا في حفرته ولم يشترك مع رملائه الا بعد أن توقفت مدفعية العدو عن اطلاق قذائفها لانتهاء الهجوم . فلو اكتشف امر هذا الجندي أحد الضباط لاعتبره جبانا . ولو عرف كاتب لسيرة ذلك الجندي الحادث لوصفه بانه كانت تنقصه الشجاعة . ولكن هذا الجندي في نظر نفسه لم يكن جبانا ولا حائر العزيمة ولعله كان يود ان يكون شجاعا ولكن جسمه لم يطاوعه واضطره ان يبقى في مكانه . ان القاص وحده هو الذي يستطيع أن يعرف ذلك ، وان يعرف في الوقت نفسه حكم الضابط على الجندي . وان يعبر بلسان الاثنين معا . والحق اننا لا نعرف الحقيقة كاملة عن حياة الناس الا اذا وقفنا على أقوال الشاهد ووجهة نظر الانسان نفسه ، أو كما يقول « رامون فرناندير » الا اذا « وازنا بين الشهادتين والأخطاء التي ارتكبها الشاهد والتي ارتكبها الانسان ، لأن هذا الأخير قد تخونه مشاعره في أكثر الأحيان ، والشاهد قد تخدعه مظاهر الأعمال » . فالانسان صاحب العمل يقول دائما « لقد تصرف تصرفا حسنا » ويتمثل بقول شاعركم

« حقا لقد تصرف على أحسن وجه

« لماذا لا يفعل ذلك ؟

« ولكن هل فعل ذلك ؟ هذه هي الشهادة

« ولا أريد أن أعرف غير هذا »

يستطيع القاص أن يعرض الموضوع من مختلف وجهات النظر ليطلعنا على حكم صاحب العمل على فعله ، وكذلك رأى الآخرين فيه - وهناك وجهة نظر ثالثة وضعها « فرمانديز » بأنها « تتألف من الرأيين السابقين وتعتبر أساسا لعملية الخلق ... النظر عن كتب فشاعد انه لا وجود لاحدى شخصيات القصة الا بعد التوفيق بين حياتها الباطنية وحياتها الظاهرة للعيان لأن احداهما مؤثر في الأخرى . أو أنهما وجدتا معا وفاقا لما يراه القاص » .

ويظهر ضعف كاتب السيرة بالنسبة للقاص انه لا يستطيع تأليف الحياتين الباطنية والظاهرية معا . فكاتب السيرة يرى «نيلز» (أحد رؤساء الوزارات البريطانية) جالسا على مقعد أمام خصومه يوجهون اليه حملات شديدة ، لعل في بعضها تحاملا كبيرا . وقد حني رأسه وعلت وجهه مسحة كآبة . فيتساءل الكاتب تساؤلا يفكر هذا الرجل ؟ ... انه لا يدري من أمره شيئا ... على أنه توجد في بعض الأحيان وقائع مادية ، ولعلها تتوفر لكاتب السيرة أكثر مما تتوفر للقاص - ولكن هذه الوقائع ليست كل شيء .

انظروا الى المؤرخ الذي يدرس عصر ما قبل التاريخ ، ان لديه وقائع ومادة ضخمة - انه يجد في جوف الأرض بلطة مصنوعة من الحجر المصقول وعصيا مصغرة في أشكال مختلفة ، ويرى على جدران المغارة صورا مرسومة للأبقار الوحشية - ولكن وفره هذه المخلفات المغروسة في المتاحف تثير السأم وتبعث على الملل . في حين لاتفيدنا شيئا عن الانسان الأول . ومن الصعب - كما يقول شستيرتون - ان نتخيل انسانا قضى حياته في قلع الأحجار وقطعها دون أن تكون هذه الحياة سبيحا من الرغبات والشهوات والمخاوف . و « كليفج » عندما يصور حياة القبائل في عصر ما قبل التاريخ يطلعنا على أشياء عديدة لا وجود لها في المتاحف .

وكذلك يستطيع كاتب السيرة أن يكون في حوزته مائة وخمسون رسالة كتبها أحد الوزراء ، وقد يتعاظم هذا العدد حتى يبلغ الألف وخمسمائة ، وقد يكون من الخير أن تنشر هذه الرسائل لأنها تعتبر وثائق هامة ، ولكنك لن تخرج من هذا المعجم الزاخر بالمعلومات صورة حية لصاحبها لأنه يجب أن يضفي على هذه الوثائق الحياة والوجود - لا أن تكتفي بأن تعيش فيها . ويقول العبقري الفرنسي «الان» ان التاريخ فارغ لا يحوي شيئا لأنه مضطر الى تصديق الشهوات التي يعترف بها أصحابها . وهكذا يتحرك في نظام تجريدي وتفوته الحياة الواقعية . فالتاريخ يجمع مختلف أنواع البلطات . ولكنه اذا اعوزته هذه البلطات ولم يعثر عليها قال انه لا وجود لها ، مما لم يقم عليه دليل .

وقد بين « ا-م-فورستر » في المحاضرات التي ألقاها عليكم عن السنة الماضية الفرق بين شخصية القصة وشخصية المترجم له فقال :

« اذا كانت احدى شخصيات القصة تطابق تمام المطابقة الملكة فيكتوريا ، فانها حينئذ الملكة فكتوريا ، والقصة أو الجزء من القصة الخاص بوصفها يتحول الى تاريخ . والتاريخ يقوم على الأسانيد - أما القصة فتستمين بالأسانيد على قدر مزاج القاص - وهذا القدر المجهول من الاستعانة يعدل تلك الأسانيد او يحولها عن أصلها تماما .

فالمؤرخ يعالج أفعال الرجال واخلاقهم بقدر ما يستطيع استنتاجه من تلك الافعال ، ويتناول الطباع كما يتناولها القاص ولكنه لا يستطيع معرفة وجودها الا عند ظهورها . ولولا ان الملكة فيكتوريا لم تقل « ولم نقص وقتا طيبا » لما عرف من حولها على الفائدة ان الخجل كان في نظرها مدعاة ملل وسأم . وكان باستطاعتها ان تعطف

حاجبيها ليستشف من حولها شعورها، وكذلك النظرات والاشارات تعتبر من الاساليب التاريخية . ولكن هب انها ظلت هادئة لا تعبر عن رأيها باى بادرة فمن كان لى امكانه معرفته ؟ فالحياة الخفية تظل خفية كما تدل عليها صفتها ، ولا يزول حفاؤها الا اذا عبر عنها بعلامات ظاهرة فتتحول عندئذ الى فعل . ووظيفة القاص ان يكشف عن الحياة الخفية من صانعها ، وان يقول عن الملكة فيكتوريا اكثر ما يمكن معرفته . وهو اذا فعل صور لنا شخصيته ، ولكنها ليست شخصية الملكة فيكتوريا المعروفة فى التاريخ » .

وهل استطيع أن أضيف كلمة الى ما تقدم وهى انها قد لا تكون الملكة فيكتوريا المعروفة فى التاريخ ولكنها أقرب شبها بالملكة فيكتوريا من شخصيتها المعروفة فى التاريخ .

يقول «رور» انه «لكى نكون فكرة أصح عن عهد الثورة الفرنسية وناپوليون، وعن خطورة هذا العهد يجب ان نصرف عن المؤرخين الى القاصين ، وان نقرأ قصة «الحرب والسلام» لتولستوى و «الأسير» لهاردى وهذا قول قريب من الحقيقة . وأقول «قريب» لأن تولستوى لم يفهم حقيقة عظمة ناپوليون وانسانيته ، ولكنه عرف كيف يجعل من اسكندر وناپوليون وكوتوزوف شخصيات حية ، وقد تم له ذلك لان تولستوى كان واسع الخيال صادق الرؤى ، وكان يعرف تصرفات ابطال القصة من رجال التاريخ ويعرف التصورات التى تظهر على وجوههم ، والاشارات والحركات التى يبدونها . وقد تكون هذه الاشارات وتلك التصورات حقيقة تاريخية ، ولكننا قلما نستطيع معرفتها من كتب التاريخ » واى مؤرخ يحق له ان يكتب كما كتب تولستوى واصفا زيارة ناپوليون للجيش الروسى

« قال بوناپارت الصغير بصوت واضح النبرات ، وهو يحدق النظر من تحت الى فوق فى عينى القيصر .

ـ يا صاحب الجلالة أستأذنكم بان امنح انسجع جنودكم وسام اللجيون دونور !

« وكان القيصر يصغى اليه باهتمام ويبتسم ويشير برأسه موافقا .

« واضاف ناپوليون بصوت هادئ، فى حين استدار بنظره الى الجنود الروس المصطفين امامه لتأدية التحية العسكرية .

ـ الى الذى تفوق نسالته فى هذه الحرب .

« وقال اسكندر وهو يتقدم نحو الامير كورلوفسكى قائد الكتيبة

ـ ستأذن جلالتكم بان أسأل رأى الكولونيل .

« وانتزع ناپوليون بصعوبة قفازه من يده الصغيرة البيضاء فتمزق ورمى به فتقدم احد ياوريه والتقطه » .

الى ان قال

« وأدار ناپوليون ظهره الى الوراء استدارة خفيفة لا تكاد تلحظ ، ومد يده الصغيرة الكبيرة كأنه يحاول ان يساول شيئا . وفهم رجال حاشيته رغبته وتحركوا وتشاوروا وشرعوا يساول أحدهم الآخر شيئا صغيرا . وأسرع العلام الذى رآه نابوليون عند بوردس فجاء باحترام ووضع فى هذه اليد الممدودة صليبا يتدلى من رباط أحمر

فساوله نابوليون دون ان يلقي عليه نظرة . ثم اقترب من الاتاريف الذي كان يحرص على ان ينظر بعينيه الواسعتين الى امبراطوره . وتطلع نابوليون الى القيصر كأنه يريد ان يشير الى انه يفعل ما سيفعله ارضاء له . ووضع نابوليون يده التي تحمل الصليب على صدر الجندي لمسة منه تكفي لكي تحمل هذا البطل سعيدا ...»

ليس باستطاعة كاتب السيرة ان يقدم هذه الصورة الحية للامبراطور . وليس هناك أي سند او وثيقة تتيح له أن يصنعه وهو يمد يده الصغيرة الكبيرة ، وهو يتطلع الى القيصر في تلك اللحظة ، الا اذا وجد من شاهد هذا الموقف وكتبه واصفا الاشارات والحركات . ولكن أحدا لم يلتفت الى تدوين مثل هذه الملاحظات في لحظات التاريخ الخطيرة .

تعسر هذه الملاحظات وأمثالها غير مشجعة لكاتب السيرة ، فهل يترتب على ذلك أن يعترف بعور القاص عليه ، أم ان عليه في بعض المواقف أن ينتفع بتحارب القاص ويحاول استعمال اساليبه الفنية ؟ ... وهل يستمر كاتب السيرة على القاص في بعض المجالات ؟ هذه اسئلة أود أن أبحثها معكم بصفتي من كتاب التراجم والسير على ضوء ما ذكره القاص «فورستر» في هذا الصدد .

تحدث فورستر عن بناء القصة وعن الشكل الذي يجعل من القصة عملا فنيا قريبا الى الاذهان .

ونجد من هذه الناحية ان موقف كاتب التراجم أصعب من موقف القاص الا في بعض الحالات النادرة ، أي عندما يكتب سيرة رجل كانت حياته واضحة المعالم جلية . فهو في هذه الحالة يجمع اقداحا لا سلسل لها مولفة من قطع متناثرة موزعة في حوادث متفرقة . ولكنه يجب أن يصنف الصحاري التي تفصل بينها . وفي حياة كل انسان فترات طويلة فارغة تتخلل الفترات الناضجة بالحوادث . وكان «بلزاك» لا يخشى الصحاري في قصصه . ولكن كاتب السيرة لن يجد حياة رجل تتجه الى ناحية واحدة، وتسيطر عليها شهوة واحدة ، كما هو الحال في بعض قصص بلزاك .

ولذلك يكابد كاتب التراجم صعوبات اشق مما يعانيه القاص في التأليف . ولكن لديه ما يعوضه عن ذلك . فهو يتناول من الواقع أشكالا معدة من قبل ، وليس عليه الا ان يستخدمها . وهذا مصدر قوة للفنان . ومما يشحذ عزيمته . والفنان عادة يعاني مشقات قاسية في ذلك النضال الذي يقوم بين المادة التي تقاوم والعقل الذي يرغب في انتاج الروائع . كان ميكيلانجلو وغيره من كبار النحاتين في عهد النهضة يتلقون من الامراء كتلا من الرخام مختلفة الاشكال . ويتلقون معها رغبات أولئك الامراء . وكثيرا ما خرج من تلك الاشكال الغريبة النصب الرائعة في اوضاع خلابة لان المقاومة التي ابدتها كتل الرخام شحذت همة أولئك الفنانين فابدعوا في الخلق . ولعل أجمل الصور تولدت عن الصخريات التي يتلقاها الشاعر في نظم القصيد الاتباعي . وقد كان من سوء حظ بعض القصص ان مؤلفيها كتبوها في حرية تامة ، وأرادوا ان يسووا «الاشخاص وفاقا لرغباتهم فجعلوا منها مخلوقات سهلة مجردة من الحياة ، وجدت للتدليل على فكرة معينة أو لتأخذ مكانها في بناء هندسي رسمت خطوطه من قبل . ومن هذا النوع قصة «تاييس» لاناطول فرانس . وهي مثل يضرب للقصة التي تعالج الشئون العقلية بخطوط مرسومة بمهارة .

وتستطيعون ان تلاحظوا اذا درستم تاريخ القصة في بريطانيا وغيرها ان أحسن

الخاصين كانوا يحرصون على أنفسهم البحث عن اشخاصهم في الحياة الواقعية والوثائق كما يفعل كاتب التراجم تماما . فمريديث استمد الكثير من شخصيات قصصه من الواقع . وتولستوى استعان بتاريخ أسرته في كتابة قصة « الحرب والسلام » ، وأندريه جيد قال في «مذكرات المزيفين» انه يفضل الاستعانة بحبر من الاحبار المتنوعة على أن يتبع الموضوع، واعتقد أن القصة المستمدة من بعض الحوادث الجارية تعد ان حولها القاص الى عمل فني تأتي أقرب الى الواقع من القصة المبتدعة . وفي استطاعة القاص ان يحذف ما يشاء حذفه من الحوادث التي يستمدها ويستمد مايلائم موضوعه ولكن كاتب التراجم مضطر الى الخضوع للواقع بحذافيره . وان يعنى بالعرض والتأليف . والا انتفى عنه لقب الفنان . ولعله يستطيع ذلك بواسطة تنسيق الاصوات كما يفعل الرسام ، أو بواسطة الوزن كما يفعل الشاعر .

ولننتقل الآن الى ما نسميه بالحكايات . ان خير ما يوصف به القاص انه يضطر المطالع الى انتظار النهاية بشغف وتطلع . ان شهرزاد لم تنج من الموت الا لان زوجها المخيف كان يرغب في معرفة الفصل التالي . فهل كانت شهر زاد تحو لو انها كانت تكتب السير . وهل تؤلف السير حكاية متصلة الاجزاء مثيرة للاهتمام كالقصة ؟ هذه حكاية «دوروثيا» ، انها شديدة الشبه بحكايات الف ليلة وليلة ، وهي قصة لان الثقة بالنفس والشجاعة تنتصران في النهاية . ولا تنقصها الحبكة الطيبة . كانت الملكة فيكتوريا هذه الحبكة . بل انها شبيهة بقصة « الخصلة في العائلة النائمة » مليئة بعرائس الخ . وكل «آن ميري» و «ليدي دوروثي ليصل» و «ليدي شستر فيلد» ... احل . اعتقد ان شهر زاد كانت تستطيع ان تحو من الموت بواسطة سيرة ديردايل .

وكانت شهر زاد لتحو أيضا من الموت بسيرة «مريديث» ان حياته مثيرة كالقصص ومسلية بناء قصصيا . فالطفولة تمر في دكان خياط ، والفشل في الزواج الاول واحب الرومنسي الطاهر للفتاة «حاجب دوف جوردون» ، ونجاح الزواج الثاني واخيرا صفاء الحياة .

على ان حياة شخصيات اخرى تظل باعثة ، وتمر بغير مفاجآت ، ولا تستطيع ان تستأثر باهتمام القارىء . وهي حياة شخصيات غيرها تحد حوادث مثيرة ولكنها قليلة ومتشابهة بحيث لا تصلح لقصة متسلسلة . هذه شخصية السيدة «سند ورد» تحكم لاول وهله ان سيرتها مثيرة لاننا نجد فيها بعض مشاهد خارجة عن المألوف وجديرة بالوصف والتصوير . وكانت السيدة ذات نفس جميلة وطيبة . ولكن جميع السير التي كتبت لها حامت حائرة عائمة لان حياة هذه الممتلة دارت على نمط واحد .

ولذلك يجب ان نحذر من كتابة السير المملة . ولكن من المقرر ان هناك قصصا مملة ايضا . وانه وجد قاصون قاموا بكتابتها .

ونستقل الى الحديث عن الاشخاص . قال «فورستر» ان هناك نوعين من الناس يجب ان نفرق بينهما وهما . الانسان الحقيقي والانسان الخيالي . والانسان الخيالي اقصر تصويرا من الحقيقي . ومن خصائصه انه يولد . وانه يلحقه الموت . وهو لا يحتاج الا لقليل من الغذاء والنوم . ويهتم طويلا ويعبر طلل بالعلاقات بين الناس . والانسان الخيالي لا يفكر الا في الحب . في حين ان الانسان الحقيقي يصرف اهتمامه بنوع خاص الى غذائه وعمله ولا يهتم بالحب الا في ساعة او ساعتين من يومه اذا وجد الى ذلك سبيلا .

على ان هناك نوعا ثالثا من الناس وهو انسان السيرة . ويختلف عن الانسان

السابقين بانه أكثر منهما عملا واهتماما بشئون الحياة . فربما قضى الانسان أيام طوالا متكاسلا أو جادا نشيطا، وهو يلعب الجولف ويرجى الوقت في محادثة اصدقائه. اما انسان السيرة فانه يعمل دائما يكتب الرسائل الى اصدقائه ويحاول ان يتولى مقاليد الحكم أو يحاول النساء أو يقطع مسافة بين . انه مخلوق ذو نشاط عظيم .

ويختلف طريقه انسان السيرة في التعبير عن الانسان الخيالي وان كان يشبهه من نواح أخرى . فالانسان الخيالي يتكلم كثيرا ، او يفكر في شكل حوار داخلي بينه وبين نفسه . ولكننا نستطيع سماعه بفعل القاص الذي يقوم بعمل الخالق المطلع على خفايا القلوب . اما انسان السيرة فيتحدث قليلا ولا يفكر أبدا عندما يخلو الى نفسه ، ويكتب رسائل عديدة ، وكثيرا ما يدون مذكرات . وهو جدير باللوم اذا لم يفعل هذا أو ذاك بل يعاقب عليه لانه يضيع كيانه لم يوجد .

صحيح ان الانسان الحقيقي يكتب أيضا الرسائل ، ولكن رسائله ليست على جانب كبير من الاهمية . وفي أغلب الاحيان لا يعنى بها عناية تذكر ، ولا يؤمن بما تحويه . اما انسان السيرة فانه اذا كتب رسالة فكر كثيرا فيما يكتب ، او على الاقل هذا ما يزعمه جميع الذين يكتبون عنه .

وتختلف معاملة الناس لانسان السيرة عن معاملتهم للانسان الحقيقي - ان انسان السيرة يعامل بقسوة أكثر من زميله . فالانسان الحقيقي يستطيع ان يناقض نفسه ، وان يحب اكثر من امراة في وقت واحد ، وان يبدأ حياته فوضويا ثم ينتهي محافظا ، او عكس ذلك . والناس يغفرون له هذه الاعمال لانهم لا يلقون على حياته نظرة شاملة . ويشهدون تطوره ببطء شديد . اما حياة انسان السيرة فانها مضمومة في ثلاثمائة صفحة تنظر فيها نظرة الناقد الفاحص ، ويصدر عليها احكاما قاسية اذا وجدها صاحبها يناقض نفسه . وهكذا نشتد في الحكم على شاتوبريان ونصفه بانه متقلب غادر لانه كان يكتب ثلاث رسائل غرام الى ثلاث نساء مختلفات في يوم واحد .

على انه يجب ان نشير الى ان عهد الرسائل والمذكرات آخذ بالزوال لان الحياة المضطربة التي نعيشها ووسائل الاتصال السريعة قضت على تلك الأوراق التي تعتبر لهم انسان السيرة ودمه . فالاتصالات الهاتفية تقضي اليوم بالتليفون . ولو وجد «بايرون» و «كارولين لامب» في عصرنا الحديث لما بقي أثر لخصامهما . ولا يعنى بالكتابة الا رجال الدولة لانهم يحرصون على تحديد المسئوليات . ولكنهم يكتبون على الآلة الكاتبة . وهكذا نجد كاتب سيرة الرئيس الامريكي ويلسون يعمد لتأييد أقواله الى نشر صور لتقارير مكتوبة على الآلة الكاتبة . حقا ان حياة انسان السيرة أصبحت عرضة للزوال .

على اننا اذا اوليا انسان السيرة العناية اللازمة استطاع ان يعيش . انه شبيه بتلك النباتات السريعة العطب التي تحتاج الى عناية كبيرة ولكنها تعوضنا عن هذه العناية بأوراقها العارمة وزهورها الجميلة ... وهكذا اذا تناول حياة انسان السيرة طبيب ماهر استطاع بواسطة علاج ملائم أن يبعث فيه تلك الحياة الداخلية التي تعد من خصائص الانسان الخيالي ، ولكن دون اضرار بالحقيقة .

ونتساءل في الختام هل نحاول ان نكتب كتابا بعنوان « بلوطرخوس أو مستقبل السيرة » .

وفي رأيي أن المستقبل لن يختلف عن الحاضر لأنه لا رقي ولا تقدم في الأدب . فليس تيسون أعظم من هوميروس ، ولا بروست أعظم من مونتيني ، أو ستراتشي من بوسويل . انهم يختلفون في الخصائص الأدبية فقط . والأدب يسير سيرا متساويا أكثر مما يتبع خطا متصلا . وسواحله من جديد عهود استقرار ديني واجتماعي يكتب فيها قليل من السير التي تكشف عن الحياة الداخلية ، وكثير من الثناء . وتلي بعد ذلك عهودا يسودها الشك واليأس فتظهر فيها السير من جديد بشكل تطمئن اليه.

وأيا كان الشكل الذي تتخذه السيرة في المستقبل فانها تظل من أنواع الأدب الصعبة المرامي ، لأنها تطالبها بتدفق العلم ، وسحر الفن . واحساس القصة للواقعي وآكاديب التاريخ الطفقة ببراعة . ويحتاج التوفيق بين هذا الخليط العجيب الى كثير من الحذر واللباقة . وقد قال كارليل ان السيرة التي يحسن المؤلف كتابتها نادرة كالحياة التي يحسن صاحبها استعمالها . وقد دل كارليل في قوله انه ناقد متفائل قدر ما هو رجل أخلاق متشائم . ولكن أيا كانت الصعوبات التي يلقاها كاتب السيرة فان هذا الفن جدير بأن نخصه باهتمامنا وأحاسيسنا . فعبادة الابطال قديمة وحدت مع الانسان . وهذه العبادة تقدم للناس أمثلة رفيعة لكنها ليست مما لا يستطاع الوصول اليها ، وامثلة محببة ولكنها ليست مما لا يستطاع تصديقه . وهاتان الصفتان تضفيان على تلك العبادة شكلا نبيا رائعا ، وتحملان منها عقيدة انسانية بحتة .